جامعة القاهرة
كلية دار العلـــــوم
الدراسات العليـــــــا
قسم الفلسفة الإسلامية

علم الكلام في مصر

من بداية القرن الحادي عشر إلي نهاية القرن الثالث عشر الهجريين

"دراسة تحليلية نقدية"

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

بإشراف

أ.د/عبد الراضي محمد عبد المحسن.

أستاذ الفلسفة الإسلامية وعميد كلية دار العلوم جامعة القاهرة

مقدم من الباحث

محمود عابدين أحمد أبو الحسن

١٤٣٨هـــــ - ٢٠١٨م

إهـــــداء

إلي أبي وأمي داعيا الله تعالي أن يمد
لي في عمريهما ويحفظهما من كل سوء

شكر وامتنان

اعترافا بالفضل الجميل، وشعورا بالامتنان والعرفان، أتقدم بخالص الشكر:

ـ إلي استاذي الأستاذ الدكتور عبد الراضي محمد عبد المحسن الذي منَّ الله به علي هذا البحث مشرفا وموجها، فكان نعم المنة من العلي المنان.

كان نعم الأستاذ والمعلم، في سعة صدره ودماثة خلقه؛ فلولاه بعد الله سبحانه وتعالي ما وجد هذا البحث طريقه، ولما خرج علي هذا النحو، فله عظيم التقدير والشكر والإمتنان.

ـ وإلي كل من الأستاذ الكبير والعالم الجليل الأستاذ الدكتور السيد رزق الحجر، الأستاذ بقسم الفلسفة الإسلامية بالكلية، الذي وافق مشكورا وقبل مناقشة هذا العمل وتقويم صاحبه.

والأستاذ الدكتور مصطفي الدميري أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الطب جامعة الأزهر قسم الدراسات الإسلامية، الذي قبل مشكورا المشاركة في مناقشة هذه الرسالة، وتوجيه صاحبها، فلهما عظيم الشكر والإمتنان.

ثم إلي كل أساتذتي في قسم الفلسفة بكلية دار العلوم، عظيم التقدير والإمتنان، وأخص بالشكر العميق مولانا العالم الجليل الأستاذ الدكتور حسن عبد اللطيف الشافعي، فقد أكرم الله هذا العمل المتواضع بإشراف أستاذنا عليه فترة من الزمن، فله من أعماق قلبي ونياط فؤادي الشكر والإمتنان، علي ما بذله من توجيه ونصح، فجزي الله تعالي أساتذتنا كل الخير، وأبقاهم أعلاما تنير الطريق، وسندا للباحثين والطلاب.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده سبحانه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالي من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلي آله وصحبه، ومن دعا بدعوته واهتدي بهديه إلي يوم الدين.

وبعد

فإن البرهنة علي صحة العقائد الإسلامية، ليست بالمهمة اليسيرة، خاصة إذا اقترن هذا بدفع سيل من شبهات المشككين بها؛ فهي مهمة يبقي الإسلام ببقائها، وببقاء القائمين بها.

ظهرت هذه الأهمية في أوائل ما نزل من القرآن الكريم، حيث إهتم القرآن المكي في الغالبية العظمي منه بأمر العقيدة، في بيان معالمها، وتكرار الدعوة إلي الإيمان بالله الواحد وترك عبادة الأصنام.

فما كان من غرس أثبت جذورا في قلوب المسلمين آنذاك من غرس هذه العقيدة؛ فقد اختلط الإيمان بها بعقولهم ودمائهم وأرواحهم؛ فدافعوا عنها، وقاتلوا لأجلها.

وذلك برغم ما أثير حول كثير من قضايا العقيدة في عصر النبوة من أسئلة؛ لأن النبي صلي الله عليه وسلم كان يتولي الإجابة عليها، وكان يكفي المسلمين أن يسمعوا من المعصوم صلي الله عليه وسلم الإجابة في صورة آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي شريف.

وواصل نهر الزمن جريانه، وتطورت الأحداث، واحتك المسلمون بغيرهم، وبرزت في البيئة الإسلامية آراء متباينة حول بعض المسائل التي تتصل جذورها العقائدية بالكتاب والسنة، كمسألة حكم مرتكب الكبيرة، وغيرها

هذه الأراء كونت بعد ذلك مع كثرة المسائل التي تشعب الحديث حولها إتجاهات فكرية، كانت البذرة الأولي لوجود فرق كلامية، تحاول كل فرقة الدفاع عن وجهة نظرها.

ونشأ علم الكلام، له مهمتان كبيرتان، الأولي هي: البرهنة بالأدلة العقلية والنقلية علي قضايا العقيدة، والثانية: بيان فساد أدلة المعارضين ودفع الشبه الواردة من الخصوم حول مسائلها.

ولما لهذا من أهمية كبري؛ اهتم علماء الإسلام بهذا العلم اهتماما كبيرا، فأطلق عليه: الفقه الأكبر، وعلم أصول الدين، وعلم التوحيد، وعلم النظر والإستدلال.

وقدموا من خلاله عصارة أفكارهم خدمة لدينهم، مع ما ظهر من خلاف حاد فيما بينهم حول بعض القضايا؛ إلا أنه خلاف راجع في كثير منه إلي إختلافهم في المنهج والمفهوم اللغوي للمصطلحات الكلامية؛ فقد كانت أهدافهم ومقاصدهم سامية؛ فالخلاف بينهم لا يعدوا في بعض الأحيان كونه خلافا لفظيا.

ولا فارق في ذلك بين زمن وآخر علي مدي التاريخ الإسلامي الممتد كل هذه القرون، أو بلد دون آخر، غاية ما هنالك أن ثمت تأثير في الإنتاج الكلامي ببعض العوامل المحيطة به، في النواح العلمية والإجتماعية ربما والسياسية أيضا.

ظهر هذا في المراحل التي مر بها هذا العلم الجليل منذ نشأته حتي العصر الحاضر، فتميزت كل مرحلة منها ببعض الخصائص، وتعرضت الفرق الكلامية في المحيط الإسلامي إلي كثير من التطور في بعض مواقفها وآراءها.

وهذه الدراسة تهدف إلي:

نظرة تحليلية هادئة لمرحلة من مراحل تاريخ علم الكلام – من بداية القرن الحادي عشر إلي نهاية القرن الثالث عشر الهجريين – لرصد أهم المتغيرات والتطورات التي يمكن أن تكون قد طرأت عليه في هذه المرحلة إيجابا وسلبا، وللوقوف علي أهم أسباب هذه المتغيرات والتطورات.

وحاولت أن تكون أكثر دقة في هذه النظرة التحليلية النقدية؛ فحصرت نطاق البحث خلال هذه الفتره في "مصر العربية" حتي يتسني لها تقديم نظرة أكثر تركيزا، ولما هو معروف من مكانة مصر العلمية والجغرافية في العالم الإسلامي قديما وحديثا.

فقد قدم الأزهر الشريف للإنسانية، وللعلوم الإسلامية في هذه الفترة رجالا كانوا من خيار العلماء، تنوعت معارفهم، وتعددت مساهماتهم في الكثير من العلوم الشرعية، ولعل هذا من أهم الصعوبات التي واجهت هذا البحث؛ فالموسوعية كانت السمة البارزة لمتكلمي هذه الفترة في مصر، فلم يكن المتكلم متكلما وحسب، وإنما كان أيضا فقيها ومفسرا ولغويا، ربما وله اهتمام بالطب أيضا؛ لأجل هذا جُعل مسار البحث حول المسائل والقضايا الكلامية.

أهمية الموضوع وأسباب إختياره.

تكمن أهمية هذا الموضوع التي دعت إلي اتخاذه محورا للدراسة في عدة نقاط منها:

١- ما اشتُهر عن هذه الفتره وفي مصر علي وجه التحديد، من أنها فترة الجمود الفكري والفتور العلمي خاصة إلي نهاية القرن الثاني عشر الهجري، وأن علم الكلام في هذه المرحلة توقف عن تقديم الجديد، وأن جهود علماء الكلام آنذاك انحصرت في الشروح والحواشي، وأن هذه الحواشي افتقرت إلي العمق العلمي، مما أدي إلي وضع هذا العلم في هذه الفترة موضع الإتهام؛ فكان لابد من دراسة متأنية ناقدة للوقوف علي مدي صحة هذا الفرض الذي تداولته أقلام الباحثين فترة من الزمن.

٢- علي مدي هذه القرون الثلاثة لمع نجم ثلة من العلماء، من أمثال الإمام إبراهيم اللقاني، وإبنه عبد السلام، والإمام الدمنهوري، والدردير، والأمير، والبيجوري، وابن عرفة الدسوقي، والشرقاوي، وابن مكرم الصعيدي، وغيرهم، وقد أقيمت بعض الدراسات حول بعضهم، وبعضهم لم يحظ بشيء من الإهتمام ولم يقف أحد علي جهودهم- فيما أعلم- في هذا المجال؛ فكان لابد من دراسة لكشف ما قد يخفي علي الكثيرين من جهود هؤلاء المتكلمين في مصر آنذاك، وبيان ما إذا كان بينهم صلات فكرية، أعني هل كانوا مدرسة كلامية واحدة؟ أم هل تعددت المدارس الكلامية في مصر في هذه المرحلة؟ وأيهم أفضل لعلم الكلام تعدد مدارسه في الزمن والبلد الواحد أم عدمه؟

هذه التساؤلات وغيرها، أعطت موضوعنا هذا نوعا من الأهمية التي تسببت في اختياره موضوعا للدراسة.

٣- أهمية النقد، حين نبرز جوانب القوة وجوانب الضعف لعلم الكلام في مراحل تاريخه الممتد؛ للإفادة منها فيما يسمي بتجديد علم الكلام في عصرنا الحاضر، تلك الدعوة التي لطالما دعا إليها كثير من علمائنا وأساتذتنا.

٤- ولقد تناول هذا البحث بالدراسة علم الكلام في المرحلة السابقة للعصر الحديث في مصر مباشرة، فحاول أن يُكمل سلسلة الإبحاث عنه في مصر، بعد رسالة أستاذنا الدكتور أحمد قوشتي حول طرق الإستدلال علي قضايا العقيدة في مصر في العصر الحديث، وأيضا رسالة أستاذنا الدكتور أحمد جاد حول الفلسفة الإسلامية في مصر في القرن العشرين، ولا يخفي ما في هذا من الأهمية، التي تستدعي جعل هذا الموضوع محورا لدراسة علمية.

هذا وقد استوجبت طبيعة البحث أن تتعدد المناهج التي كان علي الباحث أن يتبعها لدراسة هذا الموضوع؛ فجانب التزم فيه المنهج التاريخي، برز هذا في إعطاء صورة عامة عن أحوال مصر السياسية والإجتماعية والعلمية في هذه الفترة من تاريخها - من بداية القرن الحادي عشر إلي نهاية الثالث عشر الهجريين - وفي إعطاء صورة واضحة عن تاريخ علماء الكلام في هذه الفترة، في التعريف بهم مراعيا بذلك الترتيب التاريخي قدر الإمكان.

بينما استخدم المنهج التحليلي في استنباط سمات وخصائص علم الكلام في هذه المرحلة الزمنية من تاريخ مصر العربية، بعد استنباط الآراء والإتجاهات السائدة في محيط الدرس الكلامي أن ذاك التي تبلورت من خلالها هذه السمات والخصائص.

وأيضا كان للمنهج النقدي دوره في التعقيبات التي أبرز الباحث من خلالها جوانب القوة وجوانب الضعف في هذه المرحلة من مراحل تاريخ علم الكلام، وقد ضمن نتائج هذا البحث هذه الجوانب بشيء من الإجمال.

وقد أقمنا بتوفيق الله تعالي هذا البحث بعد المقدمة علي ثلاثة أبواب، كل باب مكون من ثلاثة فصول، ثم خاتمة، ثم ثبت للمراجع وفهرس للمحتويات:

<u>عنوان الباب الأول:</u>

"أحوال مصر في القرون الثلاثة" (دراسة تاريخية وصفية).

ودار الفصل الأول منه حول: (الحالة السياسية والاجتماعية). ففصلنا أولا: <u>الحالة السياسية</u>، وأشرنا إلي ما كان من الوضع السياسي المصري إلي قبيل الحملة الفرنسية علي مصر، ثم الحالة السياسية والحملة الفرنسية، ورصدنا ذروة الإضطراب السياسي في تلك الفترة، ثم تناولنا محمد علي وبنيه، من عصر عباس الأول، وعهد سعيد، وعصر اسماعيل،؛ لما لكل هذا من صلة مباشرة بالبيئة التي عاش فيها علم الكلام آنذاك، والتي كان لها أكبر الأثر فيه من قريب أو بعيد.

ثم تناولنا بشيء من التفصيل **<u>الحالة الاجتماعية</u>**.، وأشارنا في وصفها إلي ما كان بمصر من الحرف والصنائع، والصلات الإجتماعية التي كانت بين أصحابها من جانب، وبينهم وبين علماء الأزهر من جانب آخر، وما كان من مكانة إجتماعية لأهل العلم في المجتمع المصري علي وجه العموم.

ثم جعلنا الفصل الثاني من هذا الباب بعنوان: (الوضع العلمي والثقافي) فرصدنا دور الجامع الأزهر الشريف الذي يعد المعهد العلمي الأوحد في مصر في بدايات مرحلتنا التي ندرسها،

ولاحظنا تصوف شيوخه، واهتمام أكثرهم بالطرق الصوفية، ورصدنا بدايات نهضة علمية مع بدايات القرن الثاني عشر، والجو العلمي والثقافي في مصر قبيل الوجود الفرنسي، ثم الحياة العلمية والوجود الفرنسي في مصر، وبعدها الحالة العلمية في عصر محمد علي، إلي آخر الفترة.

وكان الفصل الثالث بعنوان :(أعلام المتكلمين المصريين في هذه الفترة)، فأعطينا من خلال هذا الفصل صورة سريعة مجملة حول مجموعة من علماء الكلام الأكثر تأثيرا في البيئة العلمية في علم الكلام آنذاك منهم:

١- الإمام إبراهيم بن حسن بن علي اللقاني تـ ١٠٤١هـ

أبو محمد عبد السلام اللقاني تـ ١٠٧٨ه

أبو عبد الله محمد الخراشي تـ ١١٠١ه

علي بن مكرم الله الصعيدي تـ١١٨٩هـ

الدمنهوري تـ ١١٩٢هـ

الشيخ أحمد بن أحمد بن أبي حامد الدردير تـ١٢٠١ه

الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي تـ١٢٢٧هـ:

الشيخ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي تـ ١٢٣٠هـ

الشيخ محمد بن محمد الأمير تـ ١٢٣٢ه

أحمد بن محمد المالكي الصاوي تـ١٢٤١هـ

الشيخ إبراهيم بن محمد بن أحمد البيجوري تـ ١٢٧٦هـ

الشيخ محمد بن أحمد بن محمد عليش تـ ١٢٩٩هـ:

فخرجنا من هذا الباب بمنطلقات أساسية لا غني للبحث عنها؛ من خلالها نستوعب طبيعة هذه المرحلة من مراحل تاريخ علم الكلام في مصر.

وكان الباب الثاني بعنوان :(من سمات علم الكلام في مصر في هذه الفترة، تحليل ونقد")

وقدمنا له بمدخل حول: علم الكلام قبيل القرن الحادي عشر الهجري.

ثم كان الفصل الأول حول: (مكانة علم الكلام في مصر بين العلوم الإسلامية) في هذه الفتره التي لاحظنا أنها تتكون من مراحل:

<u>أولا: في المرحلة الاولي:</u> (من بداية القرن الحادي عشر إلي منتصف الثاني عشر الهجريين تقريبا)

<u>ثانيا: المرحلة الثانية</u>: وتبدأ بمنتصف القرن الثاني عشر الهجري حتي دخول الحملة الفرنسية مصر.

<u>ثالثا المرحلة الثالثة:</u> مرحلة الإحتكاك المعرفي والقرن الثالث عشر الهجري.

الفصل الثاني حول: (العقل والنقل في الفكر الكلامي المصري، تحليل ونقد)

ورصدنا موقف علم الكلام آنذاك من النظر العقلي ومكان النقل منه، والقول في تعطيل النظر العقلي في قضايا العقيدة (إيمان المقلد): ثم تعقيب علي كل هذا:

ووضحنا صور الإستدلال علي العقائد بين العقل والنقل عندهم، ووضعنا لذلك تعقيب ونقد، لما وضح من هذه السمة لعلم الكلام حينها.

والفصل الثالث من هذا الباب وضح السمة الثالثة وكانت حول: (اختلاط علم الكلام في مصر بالتصوف، تحليل ونقد).

فظهر لنا هذا الإمتزاج الكلامي الصوفي في نقاط منها:

١- المنظومة الخلقية

٢- تعريف التصوف وفائدته.

٣- الولاية، والكرامة.

٤- الشيخ المربي

٥- التصوف الفلسفي.

ثم جاء الباب الثالث بعنوان: (من أهم قضايا علم الكلام في مصر من أول القرن الحادي عشر إلي نهاية القرن الثالث عشر الهجريين، تحليل ونقد)

والفصل الأول منه:(من قضايا الإلهيات)

والذي تناول الكلام حول:

- الصفات الأهية:

- أقسام الصفات الإلهية.
- الصفة النفسية، وهل الصفات عين الذات أم معني زائد؟.
- قضية التفويض أو التأويل.
- أفعال العباد، ونظرية الكسب.
- رؤية الله سبحانه وتعالي في الآخرة..

والفصل الثاني : (من قضايــا النبــوات)

وقد درس من قضايا النبوات:

- حكم إرسال الرســل.
- ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الرسل.
- القــول في مــعـــجزات الأنبياء.
- التفضيل بين الأنبياء وبينهم وبين الملائكة.
- خصائص نبينا صلي الله عليه وسلم عن سائر إخوته من النبيين.

أما الفصل الثالث والأخير فقد جاء فيه: (من قضايا السمعيات)

- الموت وقبض الأرواح
- حقيقة الموت:
- حقيقة الروح.
- هل المقتول ميت بأجله؟.
- سؤال القبر ونعيمه,,,
- البعث والحشر:
- الميزان:
- الصراط.:
- الجنة والنار.

ثم الخاتمة التي تضمنت أهم نتائج هذه الدراسة، وبعض التوصيات التي خرج بها الباحث من هذه التجربة العلمية الماتعه.

ثم أردفنا هذا كله بثبت لأهم المراجع وفهرس لمحتويات الدراسة.

والله سبحانه الهادي إلي سواء السبيل، وصلي الله وسلم علي سيدنا وحبيبنا البشير النذير وعلي آله وصحبه وآل بيته أجمعين.

الباب الأول:

"أحوال مصر في القرون الثلاثة"

(دراسة تاريخية وصفية).

الفصل الأول:

الحالة السياسية والاجتماعية

أولاً: الحالة السياسية:

أشرقت شمس القرن الحادي عشر من هجرة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم ومصر رسميا إيالة تابعة للباب العالي في اسطنبول[١].

ففي عهد سلطان من أقوي سلاطين الدولة العثمانية – سليم الأول ـــ خضعت مصر للحكم العثماني فقد:

"تولي السلطان سليم الأول(٩١٨- ٩٢٦هـ - ١٥١٢ -١٥٢٠م) فكان من أعظم سلاطين العثمانيين وأكثرهم انتصارا وفتحا، وكان مجيدا لقيادة الجيوش والسياسة، كثير الإطلاع ، ولوعا بالأدب ، إلا أن شيئا يخالطه من القسوة والميل إلي سفك الدماء ، وقد قيل: إنه قتل من أقاربه وعماله ما لم يقتله أحد قبله ولا بعده من ملوك آل عثمان، ورأي السلطان سليم أن يوقف فتوح الدولة في أوروبا فترة وأن يستعيض عن ذلك بالاستيلاء علي شيء من ممالك الشرق النفيسة فبدأ بدولة فارس"[٢]

سمات هذا السلطان العثماني ــ من حصافة في قيادة الجيوش وحنكة في السياسة، وكثرة الإطلاع، وسعة العلم مع قوة وقسوة ـــ من أهم العوامل التي جعلته يتطلع إلي توسيع رقعة الحكم العثماني بعد عدة فتوحات عثمانية في الغرب؛ فتوجه إلي الشرق فقام بفتح فارس وغيرها:

---

(١) اسطنبول: مدينة كبري بالغة التحصين تشغل جانبا من شبه جزيرة في مرمره، ومنذ سقوط القسطنطينية في يد الأتراك علي يد السلطان محمد الفاتح(٨٥٧ه، ١٤٥٣م)، أصبح اسمها اسطنبول، وهي تحتل الجزء الشرقي والغربي من مضيق البسفور، فهي تحتل مثلثا كبيرا من الأرض قاعدته مياه بحر مرمره المتصل بمضيق البسفور، وضلعه الأيمن يتشكل من مياه القرن الذهبي والميناء، أما الضلع الثالث فطوله ستة أميال وهو الجانب المتصل بأرض القارة الآوروبية؛ فمدينة اسطنبول تتميز بتناثرها وانتشارها علي نطاق واسع لكونها المدينة الوحيدة في العالم التي تقع في قارتين.

انظر:

– عبد الحكيم عفيفي: موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية، صـــ ٤٦، أوراق شرقية للطبع والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ١٤٢١ه، ٢٠٠٠م.

– حامد غنيم أبو سعيد: السلطان محمد الفاتح صفحات مجيدة في الجهاد ونشر الإسلام، صـــ ٩٤، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

– يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العلية العثمانية مجلد ٢، صـــ ٦٢٨، ترجمة: عدنان محمود سليمان، د. محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ١٩٩٠م.

(٢) عمر الإسكندري وسليم حسن :تاريخ مصر من الفتح العثماني إلي قبيل الوقت الحاضر صـــ ٢٧: مكتبة مدبولي ــ مصر. ١٤١٠هــ ، ١٩٩٠م

"وبعد عامين من فتح فارس (٩٢٢هـ ـ١٥١٦م) خرج السلطان سليم لفتح مصر، ففتحها وجني بيت آل عثمان من فتح مصر فائدة لم يجنها من فتح غيرها من البلدان؛إذ أنه بتنازل الخليفة العباسي بمصر عن الخلافة للسلطان سليم الأول سنة ٩٢٣هـ صار له ولسلاطين آل عثمان من بعده زعامة العالم الإسلامي لم تكن لهم من قبل"(١).

وكان الحكم وقتئذ في مصر "للمماليك" وعلي رأسهم "طومانباي"وكانت أقدامهم راسخة فيها ، ويحكمون قبضتهم عليها، وقد أدرك السلطان العثماني هذا جيدا فقد:

"كان سليم الأول راغبا في بادئ الأمر أن يدع للمماليك حكم مصر شريطة أن يعترفوا بسيادته في الخطبة والسكة، ولكن طومانباي الذي تولي بعد الغوري أبي أن يقر بذلك؛ فسار سليم الأول إليه في مصر لقتاله، فبرزت جيوشه أمام أبواب القاهرة، عام ٩٢٣هـ ، وأنزلت مدفعيته بالمماليك هزيمة ساحقة، ثم دارت المعركة في الشوارع والطرقات، ولم يلبث سليم الأول أن قبض علي طومانباي وشنقه، ثم عين لمصر واليا، وجعل لها نظاما ماليا وإداريا يضمن تبعيتها للعثمانيين كغيرها من الولايات"(٢)

وأصبحت مصر ككثير من الأقطار الإسلامية آنذاك تابعة للعثمانيين، وللحكم فيها نظاما جديدا وضعه العثمانيون لربطها بالدولة ضمانا لولائها، فوضعوا علي رأس الدولة المصرية (الباشا)، الذي اعتبر ممثلا للسلطان العثماني؛ يسير فيها وفقالنظام إداري ومالي وسياسي وضع له مسبقا:

"وقد وكلت إليه فى مصر مهمة الإدارة والحكم ،ورئاسة الديوان العالى بالقلعة ،ثم تركت الدولة العثمانية في مصر وجودا عسكريا قليلا يضمن لها فرض السيطرة الأمنية والولاء معا "(٣).

وقد اختلفت آراء العلماء والباحثين والمؤرخين حول الوجود العثماني في مصر، ففريق يراه احتلالا عثمانيا فقدت فيه مصر استقلالها وأضحت جزءا من أملاك الدولة العثمانية، وفريق ينظر إلي

المشهد من منظور آخر تتضح فيه صورة التكامل والتعاون بين دويلات العالم الإسلامي تحت حكم إسلامي وخلافة عادلة؛لما تمثله فكرة الاستقلال من هاجس كبير في عقول المؤرخين:

---

(١) المرجع السابق صـ ٢٨

(٢) العلامة الفقيه:أحمد بن محمد الحموي المتوفى سنة ١٠٩٨هـ : فضائل سلاطين بني عثمان ص ٣٥، تحقيق:د. محسن محمد حسن سليم، دار الكتاب الجامعي، مصر، ١٤١٣هـ،١٩٩٣م.

(٣) د.عبد الحميد حامد سليمان :تاريخ الموانى المصرية في العصر العثماني ص ٣٦:سلسلة تاريخ المصرين ٨٩، ١٩٩٥م الهيئة المصرية العامة للكتاب.

"يجرنا ذلك إلي مشكلة أخري من مشاكل التأريخ لمصر وهي أسطورة مصـــر المســـتقلة، إذ يلاحظ الاهتمام الكبير الذي وجهه المؤرخون إلي عصر سلاطين المماليك ــ العصر الســـابق للعصر العثماني في مصر ــ لأن مصر فيه كانت قاعدة لدولة مستقلة، كذلك الإهتمام الــذي وجهه البعض ل"دولة محمد علي" لأن مصر أصبحت مستقلة، وبالتالي سقط العصر العثماني من الذاكرة الجماعية لأنه العصر الذي فقدت فيه مصر استقلالها"[1].

ودافع أنصار الفريق الأول عن فكرة الاستقلال وصوروا لنا مصر في العصر العثماني كطفل صغير أبله يسير في ركاب والده دون وعي:

"يقول أحمد عزت عبد الكريم كشاهد عيان علي تطور المدرسة التاريخيـــة المصـــرية: أمـــا العصر العثماني فظل بين هذين العصرين الزاخرين كما يكاد يكون مهملا"[2].

صارت مصر في زيل القائمة، وتركت الصدارة والزعامة في رأيهم، يقول د.توفيق الطويل:

"وأضحت مصر بعد ذلك ــ بعد دخول العثمانيين ــ إيالة تابعة للدولة العثمانية، بعد أن فقدت في هذا النضال استقلالها، وخسرت زعامة الإسلام، وزايلتها خلافة المسلمين وتلاشت شهرتها في شتي الدول"[3].

وقد تراجع دور مصر السياسي والإقليمي كثيرا ــ في رأيهم ــ إبان دخول العثمانيين :

"باستيلاء سليم علي مصر في سنة ٩٢٣هــ ــ ١٥١٧م أصبحت جزءا مـــن أمـــلاك الدولـــة العثمانية، ودخلت في طور طويل دام نحو ثلاثة قرون(٩٢٣هــ ــ١٢١٣هــ) لم يكن لهـــا شأن سياسي يذكر في التاريخ"[4].

حيث كان لمصر قبل انضمامها إلي الأسرة العثمانية شأن سياسي كبير علي الصعيد الإقليمي والدولي، عاد لها هذا الدور بعد غياب دام نحو ثلاثة قرون عندما تولي زمام الأمـــور فيهـــا محمد علي:

"ولم تكن مصر خلال القرون الثلاثة(١٦ ،١٧،١٨م) سوي ولاية تابعة تحكم من اســـتانبول، ويتولي حكمها ولاة عثمانيون يستخدمون في حكمها قوي محلية من بقايـــا المماليـــك، وهـــذا الوضع السياسي المتواضع،قياسا بالعصرين السابق واللاحق – من حيث الـــدور الإقليمـــي –

---

(1) د. محمد عفيفي: عرب وعثمانيون ــ رؤى مغايرة،ص٩، سلسلة التاريخ:الجانب الآخر:إعادة قراءة للتاريخ المصري(٤) مكتبة الشروق، مصر، ط٢، ٢٠٠٨م.

(2) نفس المرجع والصفحة.

(3) د.توفيق الطويل:التصوف في مصر إبان العصر العثماني صــ٨، الهيئة المصرية للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين(٢١) ١٩٨٨م.

(4) تاريخ مصر من الفتح العثماني إلي قبيل الوقت الحاضر صــ ٥٩، مرجع سابق.

حول العصر العثماني إلي مجرد جملة إعتراضية في تاريخ مصر العريق، ركزت الدراسات الأكاديمية اهتمامها علي ما سبق ولحق به، ولم يحظ إلا باهتمام محدود"[1]

ويبدو واضحا أن هذا هو السبب الحقيقي في هذه النظرة لتاريخ مصر في هذه الفترة – فترة الحكم العثماني– أعني الإهتمام المحدودوعدم تركيز الدراسات الأكاديمية عليها؛ مما أدي إلي إكسابها نوعا من الغموض؛ أدي إلي تشويش الحقيقة في أذهان الكثيرين.

علي كل حال، اتجهت مؤخرا أقلام كثير من الباحثين صوب دراسة واعية ومتأنية لملامح العصر العثماني بشكل عام، وفهم أبعاد ودلالات الحكم العثماني لمصر بشكل خاص.

ولقد رصدت الدراسات اضطرابات سياسية كبيرة في مصر إبان الحكم العثماني لها،من تصارع علي السلطة وفتن ومشاحنان سياسية، إما بين سلائل المماليك وأنفسهم، وإما بينهم وبين الولاة العثمانين، وإما بين هؤلاء وجنود الحامية العثمانية:

فمن أفضل الولاة الذين تولوا حكم مصر من قبل الخليفة العثماني في نهايات القرن العاشر الهجري(٩٨٢هـ– ٩٨٨ه) "مسيح باشا" وكان من أكثر الحكام عفة واستقامة،وأشدهم حرصا علي نشر الأمن وإقامة العدل،إلا أنه تشدد في معاقبة المفسدين، فقتل منهم نحو عشرة آلاف،ثم أخذ نفوذ الولاة بعده في الإضمحلال؛ لعجز الكثير منهم، وقوة شوكة الجنود بالبلاد وتدخلهم في كل شئونها، حتي صاروا الآمرين الناهين للولاة، فلما كان آخر والي في هذا القرن – القرن العاشر – وهو (أويس باشا)(٩٩٥– ٩٩٩)هـ وأراد أن ينظم أولاد العرب من المصريين في سلك الجيش، اشتعل لهب الفتنة بين الجنود؛ فلم يقبلوا أن يتشبه بهم غيرهم في لباسهم، وهجموا علي الوالي؛ فاضطر إلي الإذعان لمطالبهم [2].

الحالة السياسية في مصر إلي ما قبيل الحملة الفرنسية.

ودخل القرن الحادي عشر ومازال روح الفتنة ينتشر بين الجنود عاما بعد عام، ويشتد تطاولهم علي الولاة، حتي وليَ مصر(قرة مصطفي باشا) سنة ١٠٢٢ه، وكان قوي البأس ساهرا علي توطيد السكينة،فأخذ يتجول بنفسه في الأسواق، وينظر في الشكاوي والأسعار، ويحكم في الجنايات بنفسه، فهابه الجند، وكان لأعماله وقع حسن في القلوب ، وعظم في أعين الناس ، حتي عزله السلطان العثماني مراد الرابع سنة ١٠٣٢ه ونصب مكانه آخر فلم يبلي بلاءه فطالب الجند السطان

([1]) د. رؤوف عباس : في تقديمه لكتاب ثقافة الطبقة الوسطي للدكتورة نللي حنا ص١٥.

([2]) انظر: تاريخ مصر من الفتح العثماني إلي قبيل الوقت الحاضر صـ ٧٦.